محاضرات في مادة: "علم اجتماع الجمهور والمستخدمين" _الجزء الأول_
2022-2021

أولا_ مدخل إلى سوسيولوجيا الإستخدامات La sociologie des usage

المحاضرة 1: مدخل مفاهيمي

1_مفهوم الاستخدام: (l'usage)

يختلف تعريف الاستخدام من باحث إلى آخر بين من يُقدم له بعدا تقنيا وبين من يعطيه بعدا إجتماعيا، ويستخدمه آخرون بالتبادل مع مفاهيم أخرى تقترب منه مثل: الممارسة والتملك، ويعود هذا الاختلاف إلى صعوبة وصف/تحديد/وتحليل العلاقة التي تربط الفرد بالأداة التقنية وإلى أي درجة من الاستعمال وصلت هذه العلاقة التي تنطلق من صيرورة تتضمن مجموعة من السلوكيات المختلفة في وصف علاقة الفرد بالتقنية بين (الاستعمال، التبني، الاستخدام، اللاّإستخدام، الممارسة، التملك....الخ)، وربّما هذا هو السبب الذي يعود إلى الخلط في توظيف هذا المفهوم في هذا المجال، حيث يشير **بيارشامبا Pierre Chambat** أن مصطلح الاستخدام أُستُعمل ليصف التوظيف، الاستعمال، الممارسة وأيضا التملك. والغموض الذي يحوم حوله يعود إلى أنه تم استعماله مرة واحدة من أجل معالجة، وصف وتحليل سلوكيات وتمثلات ترتبط بمنظومة غامضة ألا وهي تكنولوجيات المعلومات والاتصال.

*حسب **قاموس Le Robert للسوسيولوجيا** (1999) هناك معنيان رئيسيان للاستخدام حيث يعود **الأول** إلى: "ممارسة إجتماعية تصبح عادية في ثقافة معينة نتيجة أقدميتها والتردد عليها". يقترب هذا في معناه من معنى العادات والممارسات.*

*وفي **المعنى الثاني**: يُعرَّف الإستخدام على أنه: "استعمال شيء طبيعي أو رمزي لغايات خاصة"*

يتعلق هذا التعريف الأخير بمفهوم "الاستخدام الاجتماعي لشيء، أداة أو مادة ما لتسليط الضوء على الدلالات الثقافية المُعقدة لهذه السلوكيات في الحياة اليومية"، هذا المفهوم هو المستخدم في سياق دراسات استخدامات تكنولوجيات المعلومات والاتصال.

_يُعرِّف **سيرج بروكس Serge Proulx** الاستخدام الاجتماعي أنه: "أنماط استخدام فردية أو جماعية (طبقات، أصناف، أقسام) التي تكون مستقرة نسبيا على مدى زمني طويل في منظومة إجتماعية واسعة (مجموعات، تجمعات، مجتمعات).

_ يذهب **لاكروا La Croix** ليس بعيدا عن **سيرج بروكس** في تعريفه للاستخدامات الإجتماعية حيث يرى أنه :"أنماط استعمال تبرز بشكل كافٍ من خلال التكرار تحت شكل عادات مُدمجة بشكل تام في الحياة اليومية تفرض نفسها في الممارسات الثقافية الموجودة مسبقا والتي يتم اعادة إنتاجها. تقاوم كممارسات خاصة تقترب من الممارسات الأخرى المنافسة لها أو المرتبطة بها".

الإستخدام يتطلب شرطين: يتمثل الأول تكرار الاستعمال من طرف أفراد أو جماعات والثاني اندماجه في الحياة اليومية.

_حسب **Josiane jouet** الاستخدامات هي تمديد للممارسات الإجتماعية المُتشكلة مسبقا من خلال العبث المنزلي (Bricolage Domestique) الممارس أولا من طرف المبرمجين الهواة، ميزة أخرى أن الاستخدام الإجتماعي يتشكل مع الوقت لأنه يأتي مع مقاومة الجسم الاجتماعي، وقوة العادات والتقاليد التي تكافح الانتشار السريع للمبتكرات.

أما بالنسبة للباحثين في الدراسات الأنجلوسكسونية الحديثة:

فترى الباحثتان **"ليفقستون"** و**"ليفرو"** أن مفهوم المُستخدم لا يخلو من الضبابية، إذ يتّسم بطابعه الأداتي الذي يسري أيضا على العلاقة بالأشياء (كأن نتحدث مثلا عن استخدام سيارة) وباستبعاده للطابع الجماعي للممارسة الاتصالية على الشبكة التي تبقى أيضا ممارسة تفاعلية مع الآخر، عبر الوسيط، وعلى هذا النحو فإن نجاح مصطلح ***"المُستخدِم"*** لا يعني

البتّة صلوحيته بقدر ما يعكس شمولتيه. يبقى الإشكال هنا لُغوي بإعتبار أن مصطلح Usage استخدام بالفرنسية هو ما يقابله بالانجليزية Uses (الذي يختلف عن مفردة Utilisations) يرمي إلى معانٍ مختلفة حيث أن الإستخدام بالفرنسية له معنى ضيق مقارنة بالمصطلح Uses الذي يعبر عن فعل الإستخدام L'acte d'user بمعنى "التطبيق والعملية"، بينما مصطلح الاستخدام Usage بالمفهوم الفرنسي يندرج في إطار تساؤلي سوسيولوجي أين يأخذ بعين الاعتبار سياق فعل الاستخدام (متضمنا التاريخ الشخصي لإستخدام التقنية والتمثلات المتعلقة بها)، بينما يعود مفهوم الاستعمال إلى إشكالية عملية.

2/الإستخدام والمفاهيم المجاورة:

نتيجة تشابك المفاهيم المفتاحية في سوسيولوجيا الاستخدامات ببعضها البعض سوف نقدم قراءة لهذه المفاهيم التي تنوب أحيانا وتستخدم بالتبادل في الدراسات السوسيولوجية في مكان مفهوم الاستخدام سواء تعلق الأمر بالمفهوم أو بمعناه والتي يمكن أن نلخصها في جملة المفاهيم التالية: ***الاستعمال، الممارسة، التملك، اللاّإستخدام ، اللاّتملك.***

- **الإستعمال Utilisation:**

تتميز المصطلحات المجاورة للإستخدام كالإستعمال، التوظيف، الممارسة...إلخ بغنى لغوي يجعلها أحيانا قاصرة في استخدامها النظري أين نجد الصراع في اللّغة الفرنسية بين الفعلين: Utiliser استعمل وUser استخدم، حيث أن مصطلح الاستخدام Usage له معنى أوسع بينما الاستعمال هو مرادف للاستخدام العملي. هو التصرف أو طريقة استخدام شيء ما لغرض محدد. بينما تبدو اللّغة الانجليزية أكثر دقة في التمييز بين ما هو Usable (able of use) أي قابل للاستعمال أو جاهز للاستعمال وما هو Utile (useful : full of use) أي مفيد ونافع. قبل أن يكون الشيء مفيد يجب أن يكون قابل للاستعمال. كما يرى **ديبوا J.M.Dubois** أنها هناك ثلاث معايير ضرورية للاستخدام بقوله: "كي يقوم مستخدمون باستخدام مُنتج ما ينبغي أولا، أن يستجيب هذا المنتج لحاجة (بمعنى أن يكون مفيدا Utile) ثم بعد ذلك، أن يتحكم المستخدمون في استعماله (بمعنى أن يكون قابلا للاستخدام Usable) وأخيرا أن يكون في متناولهم (بمعنى متوفر للاستخدام).

حتى يتم الفصل في موضوع الاستعمال والاستخدام يجب أن نوضح الفرق بين المستعمل Utilisateurوالمستخدم Usager إذ يشرح ***Joelle Le Marec*** *هذا التمييز بالإشارة إلى أن الفرد هو مستعمل لنظام ما أولا. وكلمّا استعمل هذه التقنية بصفة مستقلة إلا وإحتاج إلى تعبئة بعض المهارات الإدراكية والتقنية، والتحكم في الجهاز التقني يسمح بمنح مرتبة مُستخدم، ولكن اكتساب المعارف وحسن التدبير التي يتطلبها الشيء التقني ليست آنية ولا هي مُسلم بها.*

- **الممارسة Pratique:**

عن علاقة الاستخدام بالمُمارسة تدعو **جوزيان جوي Josiane Jouet** إلى ضرورة الفصل بين مفهوم الاستخدام والممارسة حيث ترى أن:

"الاستخدام هو أكثر تقييدا ويعود إلى الاستعمال العادي بينما الممارسة هي مصطلح أكثر تحديدا ويغطي ليس فقط توظيف التقنيات (الاستخدام) إنما أيضا السلوكيات، المواقف وتمثلات الأفراد المتعلقة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بالأداة".

Serge Proulx يقدم تمييز اخر حيث يبعد مصطلح الممارسة عن بيئة التقنية، في رأيه الاستخدام يرتبط مباشرة بطرق التنفيذ/العمل Manière de faire المُفردة مع مادة أو جهاز تقني معين بينما الممارسة مصطلح أكثر اتساعا يشمل مجالات واسعة من نشاطات الفرد في المجتمع مثل العمل، الترفيه، الاتصال، العائلة ...إلخ.

كل الممارسات (الثقافية، المعلوماتية) هي من طبيعة إجتماعية تصّف أكثر أو أقل العمليات، المناهج، والطرق العملية، المزاولة أو الاندماج في نشاط إجتماعي لفئة من الأشخاص، في قطاع الثقافة أو الإعلام.

الممارسة هي مجموعة من العادات المُؤسسة. من خلال معرفة الممارسات الحالية لمجموعة من المستخدمين يمكننا رصد مؤشرات سلوكيات إيجابية لإستخدام تقنية معلوماتية ما. بنفس الطريقة، حتى الاستخدامات التي تقتصر على معلومة ما يمكن أن تكون مبشر لممارسات معلوماتية جديدة.

- **اللاّإستخدام Non Usage:**

عدم الاستخدام يحيل إلى عدم تبني وعدم استعمال وعدم تملك هذه التقنيات. إن عدم التبني يمكن أن يتلخص في أفعال مثل عدم اقتناء هذه التقنيات وعدم استهلاكها، أما عدم الاستعمال فيحيل إلى عدم الاستعمال الفيزيقي والملموس للشيء التقني، أما عدم التملك فيشير إلى انعدام التحكم التقني والمعرفي في الأداة. واللاّإستخدام لمعلومة، لتقنية معلوماتية، لخدمات معلوماتية، لأنظمة معلومات: يوجد منظومة كاملة من الممارسات الإجتماعية التي تتجاهل عالم المعلوماتية، هذه الممارسات تشهد على وجود عدد مهم من "اللاّمستخدمون non_usagers " رغم وجود معلومات، تقنيات وخدمات معلوماتية تحت تصرفهم.

- **التملك Appropriation:**

في سوسيولوجيا الاستخدامات، تَمَلك الأدوات التقنية يعني الطريقة التي يبني فيها كل مستخدم علاقته بالأداة التقنية، من خلال هذه العلاقة يصبح المستخدم نشط وهو من يقوم بتنميط/تشكيل استخدامه ويؤسسه على حسبه. كمّا يُعرف التملك على أنه التحكم الفردي والاجتماعي معا. في هذا المعنى تشير **جوزيان جوي** إلى أن التملك هو التحكم، فعل بناء وتشكيل الذات. كمّا نجد استخدام مصطلح التملك اليوم عند البحث عن وصف عملية استيعاب تدريجي لمهارات تقنية وإدراكية في العمل عند الأفراد والمجموعات التي تتعامل يوميا مع التكنولوجيات.

يعرف **سيرج بروكس** التملك بأنه: "التحكم (**التقني والإدراكي المعرفي**) والإدماج الابتكاري لعناصر الثقافة الرقمية في الحياة اليومية للمستخدمين الأفراد والجماعات. وفي نفس الإطار يرى **Ingham** أن التملك يتميّز بالمعارف التي توظف في الممارسة، وبالنتيجة فإن التملك يحيل في آن واحد إلى الأبعاد الإدراكية المعرفية والسلوكية وتنفيذ المعارف التي يتم ابتكارها. ومن الضروري، حتى يكون هذا التطبيق ممكنا، أن يكون هناك اكتساب لمقدار معين من التحكم التقني في التكنولوجيات وأن يكون استخدام الأداة نفسها خدمة أهداف المستخدم.

- **اللاّتملك Désappropriation:**

هذا المصطلح إقترحه Paul_Henry Chombart De Lauwe (سوسيولوجي فرنسي متخصص في علم الاجتماع الحضري) ليصّف العلاقات المترابطة بين الهيمنة والنزاع والدفاع عن ملكية الفضاء الحضاري وشعور المواطن أن المدينة لا تنتمي إليه وأنها ملكية اقتصادية وقانونية للآخرين: العمارات، الأرضية والفضاءات العمومية لهم مالكين خواص أو ملك مؤسساتي. هذه الأملاك تترجم من خلال مدونات استخدام وأنماط ممارسات للفضاءات الحضارية التي تؤثر في المواطنين في هذا المعنى في كل لحظة جدلية فضاء-مشفر، فضاء-معاش يتداخل في عملية التملك ويؤسس كمصدر نزاع بين المجموعات والأفراد.

المحاضرة 2: نشأة سوسيولوجيا الإستخدامات

تمهيد:

بدأت البحوث عن الاستخدامات في ميدان الإعلام والاتصال في الدراسات الانجلوسكسونية من التيّار الوظيفي سنوات الستينات تحت ما يسمى بمقاربة **الاستخدامات والإشباعات**. أين تغيّر اتجاه البحث في الدراسات الإعلامية من بحوث التأثير إلى بحوث التلقي في بحث العلاقة بين وسائل الاعلام بالفرد وانتقل التساؤل من: **ماذا تفعل الوسائل الإعلامية في الفرد؟** إلى: **ماذا يفعل الفرد بوسائل الإعلام؟** معتبرة أن الفرد فاعل نشط يختار وينتقي المضامين الإعلامية ما يشبع رغباته وحاجياته المعرفية، النفسية وغيرها. في التقليد الفرنسي لم تبدأ دراسات سوسيولوجيا الاستخدام في حقل الاعلام والاتصال **للأسباب التالية**:

- *أن حقل الإعلام والإتصال لم يتشكل مبكرا في فرنسا كمجال معرفي إلا في السبعينيات.*
- *دراسات التلقي لم تبدأ إلا في سنوات متأخرة في فرنسا مقارنة بالفضاء الأكاديمي الأنجلوسكسوني.*
- *دراسة الظواهر الإتصالية في فرنسا كانت تندرج تحت البراديغم السيميولوجي والأهمية المعطاة لتحليل النص والصورة.*

أما عن بدايات البحث في الاستخدام الإجتماعي فقد بدأ مع انتشار الأدوات الإتصالية في فرنسا وزاد أكثر مع ظهور تكنولوجيات المعلومات والاتصال فلم تهتم الدراسات بجهاز الاستماع (Le baladeur)، الهاتف الثابت، جهاز الرد الآلي على المكالمات (Le répondeur) فقط، بل درست أيضا التلفزيون والمانيستكوب (Le magnétoscope)، كمّا تنوعت الدراسات فيما بعد بتنوع السمات السوسيو_ديمغرافية للعينة محل الدراسة (الشباب، الكهول..الخ). حيث إهتمت مقاربة الإستخدام الإجتماعي كمقاربة جديدة ***بوصف العلاقة التي تربط الفرد بالتقنية*** أين تحول الإهتمام بالفرد المستخدم للتقنية كمستخدم نشط وليس كمستهلك سلبي وتحول التساؤل من: ***ما تأثير التقنية على الفرد؟ إلى: ماذا يفعل الفرد بالتقنية؟.***

تمثلت المساهمات التأسيسية لسوسيولوجيا الاستخدام في اجتهادات علمية هجينة تباينّت بين الإجتهادات الجامعية وكذا مساهمات المراكز البحثية العلمية مثل (**CESTA, DGT, CENT, CNRS, GRESEC, IDATE**)[1] التي أسست لدراسات الاستخدام الاجتماعي والذي كان موضوعها (تقنيات الاتصال وتكنولوجيات المعلومات والاتصال)، كما ارتبطت سوسيولوجيا الاستخدام بثلاث ميادين بحثية مجاورة هي: ***سوسيولوجيا التقنية، سوسيولوجيا الإتصال وسوسيولوجيا أنماط العيش***، ولعبت المقاربات السوسيولوجية الجديدة التي تأسست بعد سنة 1968 دورا هاما في تَشَكُل تيّار سوسيولوجيا الإستخدام في فرنسا، إذ لم يتشكل هذا الأخير في حقل الاتصال، بل في خضم مجموعة من الدراسات التي اهتمت بالتحولات المجتمعية.

1/مساهمة ميشال دوسرتو1980:

من بين المراجع الرائدة في دراسات الاستخدام كان لمؤلفه الفرنسي **Michèl de Certau ميشال دوسرتو** الذي جاء تحت عنوان "**L'invention du quotidien, (Art de faire1980)**"، "**إبتكار الحياة اليومية**"، والذي يعتبر من المراجع الأولى في مجال سوسيولوجيا الإستخدام، حيث قابل بين عالمين متضادين: *عالم الإنتاج وعالم الإستخدامات*، مبينا الفارق بين الإستخدامات المُبتكرة بوصفها ممارسات إبداعية تساعد على ابتكار الحياة اليومية، موضحا أن الذيّن ينتجون المادة الثقافية والفنية لهم سلطة على الذين يستهلكونها، سواء كانوا قراءا أو متمدرسين ويفرضون المعنى على منتجاتهم لكن هذه العلاقة كانت دائما تأخذ طابع أو شكل صراع، ولا يوجد طرفا منتصرا على طرف آخر. وطرحت مسألة عدم التطابق بين الاستخدامات المُتوقعة (التي وضعها المبتكرون) والاستخدامات الفعلية (التي يبتكرها المستخدمون).

[1] **CESTA** : Centre d'études des systèmes et des technologies avancées, **DGT** : La direction générale des télécommunications, **CENT** : Centre national d'études des télécommunications, **IDATE :** Institut de l'audiovisuel et des télécommunications en Europe, **CNRS** : Centre d'études sociologiques, **GRESEC** : Groupe de recherche et d'étude sur les enjeux de la communication.

لم يستخدم **دوسرتو** في مرجعه مفردة "المُستخدم Usager" ليصّف الفرد الذي يستخدم الميديا لكنه استخدم مفردة "الإستخدامات Usages" التي تعود إلى "طرق العمل، Manière de faire" و"عمليات التوظيف، Opérations d'emploi". من أهم المفاهيم التي استحدثها **دوسرتو** في وصفه للممارسات اليومية في بعدها النزاعي/الصراعي (Polémologique) هي اقتراحه تحديد التخطيط (La tactique) مقابل الاستراتيجية (La stratégie) موضحا العلاقة بين من يضّعون الاستراتيجيات (المُبتكرون) ومن يضّعون الخطط (المُستخدمون). من جانب أنه المُلاك يضعون استراتيجيات وينصبون كمينًا للمستهلكين الذّين لا يجدون مخرجا إلا المرور من ملكياتهم، أي من خلال أيديوجيتهم. أما الصيادون فيديرون العملية مستخدمين تكتيكات كما يُبدون مقاومة.

هذه المقاومة للقيود الإجتماعية تتجسد من خلال الميزات الإبداعية والابتكارية للمستخدمين في الحياة اليومية ويتمثل هذا الابداع "الصامت" للمستخدمين في مجموعة الحيل، التحايلات والإنحرافات عن ما تفرضه الأوامر الحكومية والتجارية على الفرد من خلال هذه الأدوات التقنية. وانتقادا لفرضية سلبية المستهلك أكد **دورستو** أن هناك إبداع من طرف الناس العاديين، إبداع خفي يتم في شبكة من الحيل الصامتة والهادئة والفعالة والتي من خلالها يبتكر كل فرد طريقته الخاصة لمقاومة المنتجات المفروضة عليه.

2/جاك بريوت، في منطق الاستخدام:

"منطق الاستخدام"، "La logique de l'usage (Essai sur les machines à communiquer): هو مرجع هام ومساهم في تكوين دراسات سوسيولوجيا الاستخدامات لمؤلفه **Jacques Perriault جاك بريوت**(بروفيسور فرنسي في علوم الإعلام والإتصال)، نشر أولا سنة 1989 من طرف دار نشر "Flammarion" ثم أعيد نشرة من طرف دار نشر "L'harmattan" حيث يحتوي جزءا من أطروحته التي أنجزها للحصول على دكتوراه الدولة التي ناقشها سنة 1983 (جامعة بوردو3، فرنسا) وكانت تحت عنوان: " Machines à calculer et machines à communiquer : Logique des fonctions, logique des usages"، **"الآلات الحاسبة والآلات الإتصالية: منطق التوظيف ومنطق الاستخدام".**

إعتمد **جاك بريولت** في دراسته هذه على العديد من البحوث التي اهتمت بمجموعة من الأدوات التقنية (آلة التصوير، الهاتف، الكمبيوتر ..الخ)، الانطلاقة كانت من ثلاث مؤلفات لعبت دورا حاسما في بناء أسس بحثه تمثلت في:

- مرجع Pierre Bourdieu، عنوانه "Un art moyen, La Photographie" الذي كان يسلط الضوء على العلاقة بين القيم الإجتماعية واستعمال آلة التصوير.
- مرجع Delly Hymes نشر سنة 1965 كان تحت عنوان:"The use of Computer in Anthropology"، أين قدم الفرق بين الاستخدام ونمط التوظيف واقترح أن الاستخدام هو مادة يجب دراستها وتحليلها في حقل علمي معين.
- المرجع الثالث لAndré Leroi_Gourhan نشر سنة 1981 الذي تحدث عن منطق واستراتيجيات الاستخدام.

قدم **جاك بريولت** تعريف للاستخدام على أنه: "مبدئيا ممارسات مقبولة إجتماعيا، مألوفة قريبة من مفهوم "Bon_usage" الاستخدام الجيد. أي الاستخدام الجيد للإعلام الآلي في العلوم الانسانية"، كما أشار إلى أن الإستخدام ليس أداتي Instrumental دائما، إذ يتزاوج مع دور رمزي يضيفه المستخدم على الأداة أو الجهاز. وفي حديثه عن "منطق الاستخدامات" دافع عن أطروحة مفادها أن المستخدمين يملكون إستراتيجية استخدام ماكينات الاتصال. وأن منطق الإستخدام لا يعمل دائما في الاتجاه المرغوب، في الواقع فإن الممارسات والاتجاهات وتأثير سياق الاستخدام تحدد في بعض الأحيان اتجاهات محافظة، ولهذا السبب يصعب توقع استراتيجية المستخدم.

يرى **جاك بريولت** أنه من الجيد أن يكون مقابل أنماط التوظيف المنصوص عليها من طرف مبتكري التكنولوجيا، يميل المستعملون الأوائل إلى اقتراح "انحرافات، متغيرات، وتحولات". إهتم **بريولت** بدراسة هذه الزاوية التي تعتبر نقطة بداية

تفكيره، من خلال فحص الممارسات المنحرفة أي "الممارسات التي هي شيء آخر غير أخطاء التسيير، والتي تعود إلى المقاصد، مع سبق الاصرار والترصد".

حسب بريولت: "هناك تقارب كبير في أشكال الاستخدام للتجمعات الكبيرة وهذا ما يتيح إفتراض وجود نموذج متجانس للاشتغال عند مستعملين مختلفين".

3/ مراجعة نقدية لسوسيولوجيا الإستخدام، جوزيان جوي Josiane Joeut،

كانت لدراسة **جوزيان جوي** النقدية لسوسيولوجيا الاستخدام دورا هاما في توضيح جنيالوجيا الاستخدامات حيث عرضت تاريخ نشأة سوسيولوجيا الاستخدام بطرح جميع المساهمات والدراسات التي شكلت تيار الاستخدامات.

رأت جوي ضرورة دراسة الاستخدام الاجتماعي لتكنولوجيات المعلومات والاتصال من خلال العلاقة القائمة بين المنطق الاجتماعي والمنطق التقني، فالإستخدام الاجتماعي يتوسط الحتمية التقنية والحتمية الإجتماعية حيث تم معارضة الإتجاه الخطي السببي للحتمية التقنية أين تُستمد الاستخدامات طبيعيا من عرض المنتجات والخدمات. على العكس من ذلك، لم تقاوم الوقوع في فخ الحتمية الاجتماعية بالتركيز على ميزة المنتج لما هو إجتماعي في بناء الممارسات الاتصالية. وساطة التقنية ليست محايدة ومادية الشيء تتسلل إلى الممارسات. هذه الوساطة بين الحتمية التقنية والحتمية الاجتماعية مركبة ومزدوجة لأنه:

تقنية لأن الأداة المستخدمة تنظم وتتحكم في الممارسة.

- ***اجتماعية لأن أشكال الاستخدام والمعاني المستنبطة من هذه الممارسة مستمدة من الجسم الاجتماعي.***

المحاضرة 3: مقاربات الاستخدام الاجتماعي

تمهيد:

هناك مجموعة من المقاربات النظرية التي تعود إلى تقاليد بحثية متنوعة ساعدت في فهم الاستخدام الاجتماعي وفي بناء ميدان دراسات سوسيولوجيا الاستخدام وتتمثل في:

- البراديغم الإنتشاري
- البناء الإجتماعي للاستخدامات
- مقاربة الإبتكار
- تملك الأدوات التقنية

1_البراديغم الإنتشاري: Le paradigme diffusionniste

يقوم هذا النموذج على معرفة وتحليل طريقة انتشار المبتكرات في نظام إجتماعي ما، وكيف يتم تبنها من طرف أفراد المجتمع مبينين الدور الذي يلعبه الاتصال الشخصي في عملية الانتشار هذه.

أسس هذه النظرية إيفرت روجرز **Evertt Rogers** (1995) والتي تهتم بدراسة الانتشار الإجتماعي للمبتكرات التقنية الذي يرتكز على ميكانيزمات الإنتشار وتداول الابتكار داخل المجتمع من خلال رصد معدل التبني لهذه التقنية أو المبتكر. تقوم أسئلة البحث فيه من جهة على: **كيف تنتشر المبتكرات؟ ومن يتبناها؟**. ومن جهة أخرى على: **قياس أثر التبني من خلال التغيّرات التي تحدث على مستوى الممارسات**. ساعدت هذه النظرية على تقديم جملة من المعارف عن كيف تنتشر المبتكرات في نظام إجتماعي ما وكيف يتم تداول هذه المبتكرات من خلال الشبكات الإجتماعية والدور الأساسي الذي يلعبه الاتصال الشخصي في قرار التبني. كما استند الباحث روجرز في كل أبحاثه حول انتشار المبتكرات إلى الآفاق التي حدّدها هذا الدور. إذ رأى أن الأشخاص الأوائل الذين يتبنون التقنيات الجديدة يتحولون إلى قادة رأي. إنهم أشخاص منفتحون على العالم الخارجي وكبار مستهلكي مواد وسائل الاتصال الجماهيري.

حسب هذه المقاربة يتجسد أي مبتكر من خلال **خمس سمات** هي: فائدته النسبية، توافقه مع قيم أعضاء المجموعة، تعقده، إمكانية تجريبه، وضوحه. كمّا يصنف المستخدمون إلى **خمس أصناف**: الموالون للمبتكر، فئة المستعملون الأوائل، فئة الغالبية الأولى، فئة الغالبية الثانية، وفئة المتأخرون. وكان هذا التصنيف محل انتقاد بسبب قصور المتغيرات السوسيوديموغرافية المستخدمة في وصف المجددون/المبتكرون (Les innovateurs). كمّا أشار **دومينيك بوييه Dominique Boullier** إلى أن **روجرز** ساهم في ترويج تصور خاطئ لمفهوم الانتشار مفاده أن انتشار اختراع ما لا يتم إلا بعد أن يكون هذا الاختراع جاهز للتبني حيث يبرز هنا الطابع السلبي للمستخدم الذي يقبل بالاختراع أو يرفضه. بعد هذا النقد قام روجرز بتنقيح الطبعة الثالثة وإدماج مصطلح "إعادة الإبتكار" "Réinvention" للأخذ بعين الاعتبار الطريقة التي يقوم بها المستخدمون بتعديل جهاز ما قد تبنوه.

كمّا لا يجب تهميش عنصر مهم في هذه المقاربة ألا وهو "قادة الرأي" لما لهم من دور مهم في انتشار المبتكرات بين أفرد المجتمع حيث يرى **روجرز وشوميكر** أن دور قادة الرأي يتم عبر تدفق متعدد المراحل، إذ يوجد في عملية الاتصال لانتشار المبتكرات اعتماد متنوع ومتعدد على تدفق الاتصال من المصدر إلى جمهور واسع. ولذا فهما يقترحان بأن عناصر عملية تدفق المعلومات شبيهة بالنموذج الاتصالي الذي إقترحه بيرلو **Berlo** (المصدر، الرسالة، القناة، المتلقي، التأثير) وذلك يتمثل بما بلي:

نموذج بيرلو	المصدر	الرسالة	القناة	المستقبل	التأثير
نموذج انتشار المبتكرات	مبتكرون علماء وكلاء قادة رأي	رسائل المبتكرات	قنوات الاتصال الشخصي أو الجماهيري	أعضاء في النظام الاجتماعي	نتائج على مستوى المعرفة وتغيير المواقف والاتجاهات وتغيير السلوك بعد مرور مدة زمنية

_كما يقترح **روجرز** نموذجا لعملية اتخاذ قرار حول الابتكار تشتمل على أربعة عناصر يدخل ضمنها عامل الوقت وهي:

- **المعرفة:** حيث يتعرض الفرد إلى ابتكار موجود ويحصل على بعض الهم حول وظائفه.
- **الاقتناع:** يكَون الفرد موقفا محبذًا أو غير محبذ للابتكار.
- **القرار:** ينهمك الفرد في نشاطات تقود إلى الإختيار، إمّا تبني الابتكار أو رفضه.
- **التثبيت**: يبحث الفرد عن تدعيم قراره حول الإبتكار، ولكنه قد يراجع قراره السابق إذا تعرض لرسائل تتعارض مع الابتكار.

2_البناء الإجتماعي للاستخدامات

اقترح **سيرج بروكس Proulx** نموذج "البناء الاجتماعي للاستخدامات" ضمن مشروعه البحثي المتصل ببناء "نظرية الاستخدامات". يكشف هذا النموذج على وجود مستويات مختلفة لتأويل وفهم ممارسات الاستخدام التي تتم ملاحظتها. فلاستخدام الاجتماعي للوسائل التقنية هو عملية ديناميكية في حالة بناء دائم، وهو ما يجعل الباحث أمام تحدّي ابستيمولوجي ومنهجي لإيجاد توصيف دقيق للاستخدامات وأنواع المستخدمين (أفراد، جماعات القرابة، جماعات

الممارسة...) وجمع البيانات وإحداث التقاطعات وتحليلها. وتتمثل **المستويات الخمسة لنموذج البناء الاجتماعي للاستخدامات** فيما يلي:

- التفاعل الحواري بين المُستخدم والآلة التقنية.
- التنسيق بين المستخدم ومصمم الآلية التقنية.
- وضعية الاستخدام في سياق الممارسات.
- تسجيل الأبعاد السياسية والأخلاقية في تصميم الغرض التقني وفي مظهر المستخدم.
- التثبيت الاجتماعي والتاريخي للاستخدامات في مجموعة من البناءات الكلية.

3_مقاربة الإبتكار

برز مفهوم الابتكار في البحث السوسيولوجي في أواخر القرن التاسع عشر بعد ما كان ينظر إلى تكنولوجيا الاتصال الحديثة من الزاوية الحتمية (Déterministe) من قبل العديد من علماء الاجتماع. كان ذلك إثر توظيف Trade لمصطلح التقليد (L'imitation) سنة 1980 لتفسير تطور المجتمعات من خلال تراكم المبتكرات والتي تساهم في تغيير سلوك الأفراد وممارساتهم. وعلى هذا تقوم أبحاث سوسيولوجيا الابتكار بدراسة المبتكرات التقنية وعمليات اتخاذ القرارات والاختيارات ذات الطابع التقني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي ذات العلاقة بها.

ويشير Alterإلى أن مفهوم الابتكار يقترن بفكرة التقدم، الحياة، الإبداع والحيوية...ويتمتع بحكم قيمي إيجابي. ويضيف أن الابتكار هو الفاصل بين عالمين: عالم الاكتشاف وعالم منطق الاستخدام الاجتماعي الذي يمثل وسيلة للاستفادة من الاختراعات ومن أسباب انتشار الابتكار، نظرة الجماعة الاجتماعية الإيجابية نحوه، ممّا يؤدي إلى ترقيته داخل شبكتها. وهنا تظهر المكانة الهامة التي يوليها Alter للمستخدم L'usager من خلال تعاريفه باعتباره يعطي الانطباع الإيجابي الأول حول المبتكر.

وتندرج أعمال Patrice Flichy في نفس السياق حتى وإن كانت تتميز بتناولها لمنحى سوسيو-تاريخي وبمواقفه في خصوص تفاوت الكفاءات بين الفاعلين (المصممين والمستخدمين) وبإثرائها للمقاربة بجملة من المفاهيم الجديدة نذكر منها "المخيال التقني" و"المخيال الاجتماعي" للاستخدام.

ومن منظور آخر طوّر كل من Vedel وVitalis 1994 مقاربة اجتماعية سياسية للاستخدامات تثير تساؤلات حول التمثيل المؤسساتي للمستخدم في عملية الابتكار التقني وحول دور المؤسسات العمومية في الاختيارات المتعلقة بالعرض التقني. هذه المقاربة تتسم بالربط بين البعد الماكرو_سوسيولوجي لتحليل العرض التقني مع البعد الميكرو_سوسيولوجي لدراسة الاستخدامات الممارسةَ أي أن هذه المقاربة تسعى لربط جسر بين الخطوات التي ترتكز على تحليل آليات الابتكار وتلك التي ترتكز على الاستخدامات في وضعيتها.

4_تَمَلُك الأدوات التقنية: L'appropriation des objets techniques

يقوم الاستخدام الإجتماعي على نموذج التملك ومهما تكون طبيعة الاستخدام فإن التَمَلُك يبنى في إطار العلاقة مع وسيلة الاتصال، بينما يعكس الاستخدام في عمقه بعدا معرفيا وإجرائيا، يحمل في بنيته رهان عمليات اكتساب المعارف (اكتتشاف منطق ووظائف الأداة) والمهارات (تعلم الرموز وكيفيات تشغيل الأداة).

على العكس من مقاربة الإبتكار التي تركز على إدراك الأدوات التقنية، مقاربة التملك تركز على إدماج إستخدامها في الحياة الإجتماعية، من جانب آخر تهتم مقاربة الإنتشار بدراسة آلية إنتشار التكنولوجيات من خلال تطور معدل التبني بينما دراسة الإستخدامات في معنى التملك الاجتماعي للتكنولوجيات تعود إلى تحليل تكوينها/تشكيلها من وجهة نظر المستخدمين.

إن الهدف الرئيسي من الأعمال التي تبحث في تملك الأدوات التقنية يقوم على تحليل كيف تتشكل/تتأسس استخدامات متميزة/مختلفة داخل الجماعات الإجتماعية، خاصة من خلال فحص تباين الدلاّلات التي تتضمن الممارسات عند المستخدمين بالإهتمام بنشاط المستخدم بالنظر في ما الذي يشكل له معنى، ولماذا يطور استخداماته وكيف يُعَرف نفسه في خضم الممارسات الجديدة؟، وجهة النظر هذه تعارض تمثلات المستخدم كمستهلك أو كمستعمل سلبي وتضع على العكس من ذلك قصدية ونشاطات المستخدمين في مركز التحليل. بمعنى آخر أن المستخدم يعطي معنى للتقنية من خلال تملكها له، السؤال المركزي في كل بحث يهتم بدراسة التملك يتأسس على دراسة كيف تندمج أداة تقنية جديدة في الحياة اليومية وفي ممارسات المستخدمين وكيف تندمج أيضا داخل العلاقات الإجتماعية.

*يحدد **سيرج برولكس** أربعة شروط أساسية ينبغي أن تتوفر لتحقق التَّمَلُك وهي:

- التحكم التقني، الادراكي والمعرفي في الأداة.
- إدماج دلالي/ذو معنى للأداة التقنية في الممارسات اليومية للمستخدم.
- الاستخدام المتكرر لهذه التقنية يتيح المجال لإمكانية إنشاء (أفعال تساهم في ظهور الجديد في الممارسات الاجتماعية).
- على المستوى الجماعي، التملك الاجتماعي يفترض تمثيل المستخدمين في مؤسسات السياسة العامة وفي نفس الوقت ممَثَلين في المؤسسات الابتكارية (الانتاج الصناعي والتوزيع التجاري).

_التملك وعلاقته ببناء الهوية:

أحد المفاهيم الاساسية المرتبطة بمفهوم التملك هو مفهوم الهوية، وفي الواقع من الاهمية بمكان أن يتعرف المستخدم على نفسه في التكنولوجيات المبتكرة. ولأجل هذا من الضروري أن يشارك في المستخدم في ابتكار هذه التكنولوجيا، أو على الأقل تسمح له هذه الأخيرة بالمساهمة بلمسة ابتكارية. وفي الواقع فإن مفهوم الهوية يبدو محوريا في تعريف التملك، ففي علم النفس يشير التملك إلى الفعل الذي يقوم به الفاعل من أجل أن يجلب لنفسه أو ذاته شيئا ما أو إدماج شيء ما في الحياة المعيشي لفرد أو جماعة اجتماعية.

التملك في بناءه للاستخدام يعتمد على آليات تعكس الهوية الشخصية والهوية الاجتماعية للفرد حيث يفرض التملك التزاوج بين التفرد والانتماء الذي يُربط بالجسم الإجتماعي. الفضاء الخاص يفتح مجال أكبر لفردانية الاستخدام، ولتملك التقنية لأغراض تطويرية شخصية (استخدام ترفيهي، هوايات). كما أن الاستخدام المكثف هو غالبا إشارة على التملك القوي الذي يبلور رهانات الهوية كما يبينها أيضا الممارسة غير الطبيعية لألعاب الفيديو في فترة المراهقة بحثا عن الهوية.

برولكس ولابيرج **Proulx** و**Laberge** (1995)، إهتموا بتحليل آليات بناء الهوية للجمهور من خلال دلالات استخدام التلفزيون حيث بيّنوا أن الدّلالات التي تنسب إلى الميديا والرسائل الحاضرة في الفضاء المنزلي تساهم في بناء هوية عائلية يوميا. تحليل الممارسات كشف عن تكوين ثقافة عائلية مبنية على أنواع التفاعلات، العادات وطقوس التنظيم وأيضا العادات الاستهلاكية التي تحمل آثار السياق الاجتماعي الذي تتموضع فيه الممارسات.

_التملك والمعارف: يرتبط تملك شيئا ما بمعرفتنا عنه، إن المسعى الفردي للتملك يرتبط حول الاكتساب الفردي للمعارف والكفاءات ويتعلق الأمر بالطريقة التي يكتسب من خلالها ويتحكم ويحور ويترجم الرموز والمعارف العملية الضرورية من أجل التعامل مع التكنولوجيات الجديدة بشكل صحيح.

_التملك والتحفيز: يلعب المشروع الشخصي الذي يحمله كل فرد إزاء التكنولوجيات دورا أساسيا في صيرورة التملك، حيث أن مشروع الاستخدام يحدد بصورة معتبرة التمثلات إزاء الشيء وإستخدامه. وعليه مهما كانت المشاكل التقنية التي تصادف الفرد، فان امتلاك التقنية يُيَسر بحدة الاستثمار الفردي أو الشخصي والهدف الذي يسعى إليه المستخدم، إن التملك يمثل خلق معنى بالنسة للمستخدمين.

محاضرات في مادة: "علم اجتماع الجمهور والمستخدمين" _الجزء الثاني_

2022-2021

ثانيا_ دراسات التلقي في الإعلام

المحاضرة 4: نشأة بحوث التلقي

تمهيد:

ظهرت دراسات التلقي متمثلة في مُسمى "نظرية التلقي" بداية في الستينيات من القرن العشرين بألمانيا مع مدرسة كونستانس بناءا على مجموعة من الاجتهادات الفكرية التي كانت تسعى إلى تحويل الاهتمام الأدبي من دراسة ثنائية المبدع_النص إلى التركيز على ثنائية النص_القارئ وهذا بعد عجز مجموعة المناهج المستخدمة في ذلك الوقت (البنيوية مثلا) والتي كانت تركز على الجانب الشكلاني للنصوص متغاضية تماما عن دور المتلقي في اعطاء المعنى للنص، بداية من هذه النقطة ظهرت مجموعة من المحاولات المتمثلة في مقالات ودورس تشير إلى ضرورة الاعتناء بالمتلقي وتسليط الضوء عليه لما له من دور بارز في المشاركة في إنتاج المعنى وكانت دراسات ياوس وإيزر هي الأبرز في ذلك الوقت مما سمح بتشكيل ما يسمى ب"نظرية التلقي" وكان يقابلها في البحوث الامريكية " نظرية استجابة القارئ". لم تتشكل هذه النظرية من فراغ بل كانت هناك مجموعة من المرتكزات الفلسفية والمعرفية التي مدّت هذه النظرية بالمفاهيم والمناهج الأساسية، ومن بين الخلفيات الفلسفية المساهمة في عملية تشكل وبناء نظرية التلقي نجد: الظاهراتية (القصدية والتعالي) الهيرمينوطيقا (التأويل، الأفق والفهم) أما بالنسبة للخلفيات المعرفية فتمثلت في مجموعة من المدارس الأدبية هي: الشكلانية الروسية، بنيوية براغ، النقد الجديد وسوسيولوجيا الأدب.

1-2/ نظرية التلقي...المفاهيم الأساسية:

مصطلح التلقي مشتق من الفعل اللاّتيني Recipere بمعنى تلقى واستقبل، فهو مفهوم حديث نسبيا في الخطاب النقدي، تبنته نظرية التلقي الألمانية التي رّكزت على البعد التاريخي لعملية التلقي. واستخدمه المنظرون الأنجلوساكسون في المجال اللّغوي والإعلامي وفي حقل الفنون في مرحلة لاحقة. ويشير المفهوم الجمالي للتلقي في آن واحد، الأثر الذي يحدثه العمل الفني وطريقة تلقيه من قبل القارئ. ويمكن للقارئ أو المتلقي أن يستجيب للعمل بعدة أشكال مختلفة، فقد يستهلكه أو ينقده، وقد يعجب به أو يرفضه، وقد يتمتع بشكله ويؤول مضمونه ويتبنى تأويلاً مألوفاً أو يحاول تقديم تأويل جديد. ويشير التلقي إلى النشاط الذي يقوم به المتلقي في مقابل العملية الإبداعية، وهو أخيرا ذلك التحول في الاهتمام بالقارئ. نرى من خلال هذه التعريفات البسيطة أن التلقي هي تلك العلاقة التي يحددها المتلقي (القارئ) مع النص من خلال تعامله معه، فهمه له، وتأويله لمعانيه.

أما عن مفهوم **نظرية التلقي** فتشير موسوعة كامبريدج إلى أنها بوجه عام، اتجاه في النقد الأدبي تطوّر على يد أساتذة ودارسين ينتمون إلى **جامعة كونستانس Constance** في ألمانيا الغربية خلال الستينات وبداية السبعينات إلى التركيز على عمليات قراءة النصوص الأدبية وتلقيها بدلاً من المناهج التقليدية التي تركز على عملية النصوص أو فحصها فحصا دقيقا. لقد وضع **ياوس وإيزر** رائدا مدرسة كونستانس الألمانية هيكلا نظريا لما يسمى **بجمالية التلقي Esthétique de la réception** وهي نظرية توفيقية تجمع بين جمالية النص وجماليه تلقيه، استنادا إلى تجاوبات المتلقي وردود فعله باعتباره عنصرا فعالا وحيًا، يقوم بينه وبين النص الجمالي تواصل وتفاعل فني ينتج عنهما تأثر نفسي ودهشة انفعالية، ثم تفسير وتأويل، فحكم جمالي استنادا إلى موضوع جمالي ذي علاقة بالوعي الجمعي. فلم يعد التركيز هنا على النص ومبدعه وإنما على القارئ الذي أصبح هو النقطة الأساسية في عملية تقييم الأعمال الفنية والأدبية لما له من دور من تقديم قراءات

متعددة للنص ومعاني مختلفة بناءا على مجموعة من العوامل المتمثلة في الخلفية الفكرية للقارئ والسياقات التي تم فيها قراءة النص والخبرات السابقة التي تسمح له بإعطاء تأويلات ومعانٍ جديدة للنص.

أما بالنسبة لأهم المفاهيم التي تقوم عليها نظرية التلقي فيمكن حصرها في مفهوميّن اثنيّن لكل من **هانز روبرت ياوس Hans Robert Jauss** (1921_1997) والمتمثل في **أفق التوقع/الانتظار Horizon d'attente** ومفهوم **القارئ الضمني Lecteur implicit** لدى **فولفغاناغ إيزر Wolfgang Iser(1926_2007)**، فماذا يعنى بهما؟.

_ بالنسبة إلى أفق الانتظار أو التوقع **Horizon d'attente** الذي صاغه **ياوس** يقصد به الفضاء الذي تتم من خلاله عملية بناء المعنى ورسم الخطوات المركزية للتحليل ودور القارئ في إنتاج المعنى عن طريق التأويل الأدبي، أي مجموعة الخبرات التي تتكون لدى القارئ عبر قراءاته المتعددة للنصوص المختلفة. أو ما الذي يتوقعه القارئ من قرائته لنص معين بناءا على مجموعة القراءات السابقة للنصوص المختلفة.

_أما بالنسبة للمفهوم الذي صاغه إيزر فهو مفهوم **القارئ الضمني Lecteur implicite** والذي يتمثل في كل الاستعدادات المسبقة الضرورية بالنسبة للعمل الأدبي لكي يمارس تأثيره وهي استعدادات مسبقة ليست مرسومة من طرف واقع خارجي وتجريبي، بل من طرف النص ذاته، وبالتالي فالقارئ الضمني كمفهوم له جذور متأصلة في بنية النص، إنه تركيب لا يمكن بتاتا مطابقته مع أي قارئ حقيقي. ويتمثل هذا التركيب في التصورات التي يضعها الكاتب في علمه وتخص هذه التصورات بالقارئ المحتمل الذي يستحضره الكاتب في كتاباته. فالقارئ الضمني لا يكون قارئا فعليّا للنص وإنما قارئ مُتخيّل للنص.

2_2/ دراسات التلقي في الإعلام:

تأسست بحوث التلقي في علوم الإعلام والاتصال بدءا من مجال الدراسات الثقافية في جامعة برمنغهام ببريطانيا، رغم أنه جلّ النظريات الاتصالية بدأت في أمريكا قبل وبعد الحرب العالمية الثانية إلا أنه التأسيس لبحوث التلقي (خاصة على المستوى المنهجي) يمكن القول أن انطلاقته كانت من مجال الدراسات الثقافية المعاصرة، أما في البحوث الامبريقية والتي كانت تخص دراسات التأثير خاصة والتي بدأت في أمريكا بدءا من (نظرية الطلقة السحرية، نظرية التدفق عبر مرحلتين...إلى غاية نظرية الاستخدامات والاشباعات). فهنا يمكننا ملاحظة أيضا أن بحوث الإعلام هي الأخرى أيضا تحوّلت من التركيز على الرسالة الإعلامية (النص) وما له من تأثير على الأفراد إلى التركيز على المتلقي (القارئ) وكيف ينتقي ويستخدم الوسيلة/الرسالة الإعلامية بناءاً على مجموعة الفروق الفردية التي تميّز الجمهور.

إن اشكالية تلقي الرسائل الإعلامية طُرحت انطلاقا من ثمانينيات القرن الماضي، في السياق العام للتيّارات النقدية وخاصة المدرسة الألمانية التي طوّرت نظرة نقدية في الستينات حول علاقة النص الأدبي بالقارئ وتحوّل الاهتمام من جماليات التأثير إلى جماليات التلقي. وقد ينسجم هذا الطرح مع المنظور الذي طوره **رولان بارث** في دراسته الشهيرة "**موت المؤلف**" حول التلقي ويلتقي أيضا مع منظور مدرسة فرانكفورت ومركز برمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة في بريطانيا من خلال نموذج نقد الثقافة الجماهيرية الذي انبثق عنه تيار دراسة تلقي الرسالة الإعلامية.

إن بحوث التلقي والدراسات الثقافية على وجه التحديد تشكل الكتلة التاريخية الأخيرة والتجديد الأكثر أهمية، لأنه يثير التساؤل عن وسائل الإعلام والثقافات المُهمشة. إذا ليس التلقي موضوعا نظريا لكنه حقل امبريقي، ومفاجأة دائمة للعديد من تيارات البحث التي تقتسم بعض الافتراضات الأساسية وهي:

_لا يمكن أن يختزل الحضور إلى حفل موسيقي أو مشاهدة مادة سمعية بصرية أو القراءة في الاستهلاك البسيط للمواد ذات الخصائص الموضوعية والتأثير ذي المعنى الأحادي.

_يجب تحليل خطابات المستخدمين أو المتلقين عن ممارساتهم الثقافية وتسليط الضوء على مختلف مخاوفهم وفهمهم للمواد ذاتها التي يتلقونها.

_تشكل العلاقة بوسائل الإعلام ومحتوياتها موضوع تفاوض اجتماعي أو هوياتي من الذين يستخدمونها في الحدود التي ترسمها الوسيلة الإعلامية ومحتوياتها.

وكانت البداية مع كتابات **لريتشارد هوغارت** الذي نشر كتابه عام1957 حول استخدامات محو الأمية The use of literacy والذي تُرجم إلى الفرنسية تحت عنوان ثقافة الفقيرLa culture du pauvre ، تناول فيه تحليلات للتغيّرات التي أصابت نمط حياة وممارسات الطبقة العمالية وقد اعتمد في تحليله لسلوكيات المتلقين على موضوع الثقافة الجماهيرية. والفكرة الأساسية في كتابه ثقافة الفقراء تقوم على دراسة الجمهور بمختلف أشكاله وأساليبه الحياتية وذلك من خلال تحليل اثنوغرافي دقيق من أجل فهم كيف يتعامل الجمهور مع المنتجات الثقافية.

من جانب آخر يعتبر نموذج **ستيوارت هال "الترميز وفك الترميزEncoding Decoding"** من بين أهم الأعمال المؤسسة لنظرية التلقي، فمن خلال هذا النموذج يبيّن لنا **هال** الطريقة التي تؤول بها الرّموز المُتضمنَّة في المواد والرسائل الإعلامية من طرف من يتلقونها. ومن أجل فهم التلقي يجب تحليل سيرورة التشفير (الانتاج) وفك التشفير (التأويل). حيث يرى للمتلقي ثلاث مواقف مفترضة يمكن أن يتخذها إزاء النص: يمكنه أن يقدم قراءة تتوافق مع ما أراده صاحب النص. يمكنه تقديم قراءة تفاوضية بحيث يوافق على عناصر المعنى المهيمن ويرفض البعض الآخر كما يمكنه أن يتعارض مع المعنى المهيّمن.

يشكل المقال الذي كتبه ستيوارت هال بعنوان: Encoding decoding بمثابة المصدر الأساسي للدراسات الثقافية، أو البيان المؤسس لدراسة جمهور وسائل الإعلام عن الفكرة الرئيسية التي ينطلق منها هول تكمن في فهم التلقي كمرحلة لسيرورة انتاج المادة الاعلامية، فالجمهور ليس حشدا وليس سلبيا ولكنه أحد الفاعلين المتدخلين في هذه السيرورة. ويرى أن المتفرجين لهم ثلاث إمكانيات لتفسير المادة الإعلامية: يمكن أن يوافقوا على مفهوم المنتج الإعلامي مثلما تم التعبير عنه في مفرداته المُشكلة للايديولوجيا المهيمنة ويمكن أن يُقبل الإطار العام للإعلام ولكنه يعارض طريقة إعادة الصياغة الخاصة التي تتضمنها هذه الموضوعات أو يمكن أن يرفض الإطار العام ويقترح نظام تفسير آخر يطلق هول على العناصر الثلاثة: القراءة المهيمنة، التفاوضية، المعارضة.

كما كان لمساهمات الباحث البريطاني **دافيد مورلي** David Morley الذي ركّز على ضرورة الاهتمام بالسياق الذي تتم فيه عملية التلقي واستبدل مفهوم فك الترميز بمفهوم سياق المشاهدة وبالتحديد السياق العائلي كما يركز **مورلي** على الحركة العائلية أما منهجيا فيعتمد على المناهج الاثنوغرافية التي تسمح بملاحظة التفاعلات فيما بين أفراد العائلة أمام شاشة التلفزيون عن طريق الملاحظة بالمشاركة.

كانت بحوث مورلي بالإضافة إلى عدد من الباحثين (Radway & Hibson) الذين توجهوا إلى دراسة نفس الإشكالية البحثية تركز على التأويلات التي يقدّمها المشاهدون للرسائل الإعلامية وكيف يستخدمون التلفزيون انطلاقا من قيمهم الثقافية وخبراتهم وتجاربهم الاجتماعية وكيف يشاركون في بناء معاني الرسائل الإعلامية. حيث بدأ الاهتمام في منتصف الثمانينات ينصب حول الاستعمالات الأسرية للتلفزيون وهذا كان بمثابة الاعتراف بالدور الفعّال للمتلقي في بناء معاني الرسائل الإعلامية وبأهمية السياق الذي تتم فيه عملية التلقي.

ثم بعد ذلك تطوّرت دراسات الاستعمالات المنزلية لتكنولوجيات الإعلام والاتصال مع بداية العشرية التاسعة من القرن الماضي، فلم يعد التلفزيون وحده مركز الاهتمام ضمن التكنولوجيات المنزلية الأخرى التي ينبغي تحليل دورها في تمفصل الفضاءات الخاصة والعمومية ومحاولة تحديد السياق الذي يجري فيه النقاش حول قدرة وسائل الإعلام على خلق وصيانة الهويات الثقافية. ويتعلق الأمر بإعادة تسييق دراسة استهلاك التلفزيون في إطار اجتماعي تقني وثقافي أوسع وإدراك ديناميكية منزلية (domestication) التكنولوجيات داخل العائلات، أي ادماج هذه التكنولوجيات في الفضاء الأسري اليومي والكيفية التي تعمل بها كل عائلة في إدارة فضائها الاجتماعي والتكنولوجي.

المحاضرة 5: دراسات التلقي في السينما

تمهيد:

يمكننا تميّيز دراسات التلقي في السينما بتلك الدراسات السينمائية (الفيلمية) وهي مجال يهتم بمختلف المقاربات التاريخية والنقدية والنظرية المتعلقة بالأفلام على العكس من دروس التدريب على انتاج فيلم. فالدراسات الفيلمية تهتم بالبعد الجمالي، الفني والشكلي والنقدي للسينما حيث أنها تركز على: النقد، الكاتب، النوع، القصة، رمزيّة الفيلم والنقد. أما بالنسبة لدراسات التلقي في السينما فهي تلك التي تهتم بجمهور السينما (قاعات السينما أو جمهور الأفلام السينمائية لاحقا) حيث يهتم هذا النوع من الدراسات بطبيعة تلقي الأفلام السينمائية وكيف يتفاعل الجمهور معها وكيف يؤول أحداثها وينتج المعاني المتعلقة بها، وكيف يتفاعل الفرد مع الفيلم، وكغيرها من الدراسات كانت هناك بعض التعقيدات المنهجية من القيام بهذا النوع من البحوث بسبب صعوبة تطبيق الأدوات المنهجية والقيام بالبحوث الامبريقية في هذا المجال لأن جمهور السينما يتعلق بالحشود والجماهير (Mass) وكانت هناك العديد من التساؤلات والإشكالات حول: كيف يمكن القيام بدراسات سينمائية على الجمهور؟ وكيف يمكن تعميمها؟.

يتفق معظم باحثو الاتصال الجماهيري على صعوبة تصنيف الجمهور في ظل تنوع تركيبه، والتحولات والتغيّرات السريعة في البيئة الاجتماعية والمادية، فضلا عما يواكب ذهنيات ونفسيات هذا الجمهور من تغييرات في كل وقت وحال، فيحاول ممارسو نظرية التلقي الإجابة على سؤال :**كيف" يتلقى "المشاهدون الفيلم ويستجيبون له؟.**

وتعتمد استجابة شخص ما لأحد الأفلام وتفسيره له على عناصر كثير، من بينها:

- نوع الفيلم :فيلم حركة أم فيلم رومانسي، من منتجات هوليوود أم فيلم عالمي مع ترجمة مكتوبة، حكاية واقعية أوخيالية.
- طريقة العرض :دار السينما، فصل دراسي، محطة تليفزيونية أم على الكومبيوتر الشخصي.
- طبيعة المشاهد :ذو معرفة، لا ينتقد ولا يهتم، قليل الانتباه.
- -تركيبة جمهور المشاهدين :متجانسون عرقياً، من أعراق مختلفة.
- مستوى التماهي :مدى استطاعة المشاهد أن يرى نفسه وأشخاصاً آخرين يعرفهم في شخصيات الفيلم
- المنظور الأيديولوجي :أحد أنصار حقوق المرأة في فيلم توجهه ذكوري، أو رأسمالي يشاهد فيلماً يتعاطف مع القضايا اليسارية.
- الاعتبارات الجمالية :مشاهدين لديهم حس فني ويقدر الاستخدام الإبداعي للإضاءة والألوان حتى لو كانت حكاية الفيلم ضبابية ومشوشة، أو جمهور من المطلعين على أعمال مخرج معين.

ظلت السينما لفترة طويلة عرضا شعبيا. ولم تكن العروض السينمائية تقتصر على البالغين، فقد كان الأطفال الذين تتجاوز أعمارهم خمس سنوات يذهبون إلى السينما مرتين على الأقل في الشهر. هذه الخاصية جعلت العروض السينمائية عروضا عائلية بامتياز. ومن هنا يمكن القول أن السينما الصامتة لما قبل الحرب العالمية الأولى هي أساسا تجربة اجتماعية جماعية. وكان الجمهور يشارك بشكل قوي في العرض فيصدر ردود أفعال وتعليقات، ويعبر بصوت مرتفع عن رأيه حول أحداث الفيلم. لقد مكّنت هذه المسألة من إقامة علاقة بين المتفرّجين الذين يتقاسمون نفس الشعور، وشكلت جماعة من المتفرجين كانوا في الأصل غرباء عن بعضهم البعض. لكن هذه العلاقة سرعان ما تغيّرت بعد ظهور السينما الناطقة وأصبح الجمهور الناطق للسينما الصامتة الجمهور الصامت للسينما الناطقة.

رغم مكوث هذا الوضع لفترة طويلة إلا أنا مع ظهور الانترنت وتطبيقات الويب الاجتماعي ووسائل العرض السينمائية الرقمية يمكن القول بأنه أصبح بامكان الجمهور الرجوع إلى حالته الطبيعية الأولى (الجمهور الناطق للسينما الصامتة)

وهذا بفضل ما أصبحت توفره المواقع الالكترونية السينمائية (أي المتخصصة في عرض الأفلام السينمائية)، وخدمات الفيديو حسب الطلب لما أصبحت توفره هي الأخرى من أيقونات تقييمات للأفلام السينمائية.

ففي دراسة قائمة على مقاربة اثنية لتحليل محادثات على مستوى مجموعات المحادثة Forum de discussion(**مجموعة ناشطة منذ 1996**) قام بها Laurence Allard، عن كيف تتلقى هذه المجموعة الأفلام السينمائية؟، حيث اعتمد على تحليل مجموعة الرسائل المحررة حول فيلم Titanic تيتانيك 1997 حيث يعبر هذا الفيلم عن أول نجاح للفيلم السينمائي على الانترنت، تلقت هذه المجموعة أكثر من 800 رسالة عند خروج الفيلم وتواصل النقاش حوله إلى غاية 1998، هذا الفيلم سمح بظهور أنماط للتلقي مثل: **الصفحات الشخصية، مو اقع المعجبين** الذين وُجدوا من خلال الانترنت حامل للتعبير فريد من نوعه، حيث يتمثل النشاط التفاعلي في مجموعة المحادثة تحت (Critique du cinéma à vos claviers) في النقاش حول السينما ويخص وضعية عشاق السينما لكل من يريد المشاركة: ما هو أفضل فيلم شاهدتموه؟ القيام بألعاب حول الأفلام السينمائية على منتديات المحادثة....الخ وكل رسالة تمنح الفرصة للتعليق عليها ومنه تعطي الفرصة لبدأ المحادثة وطرح مجموعة من الآراء وحتى نقد الأفلام. وأحيانا القيام بإعادة نشر التعليقات السابقة والتعليق عليها مجددا كل هذا في سيرورة تفاعلية.

أما الدراسة الثانية فتتمثل في دراسات التلقي وعندما نقول تلقي الأفلام يمكننا فهم أمرين:

من جانب الخطاب الذي ينبع من الوسط المهني ومن جانب آخر ردود أفعال الجمهور العادي. حيث ينتج الوسط المهني خطابات ترويجية (شريط إعلاني، إشهار، مقابلات مع الممثلين والمؤلفين) وخطابات نقدية التي تشتمل على النقاش والخلافات التي أثارها خروج الفيلم في القاعات. Janet Staiger 1992 اقترحت تحاليل محفزة للغاية للطريقة التي يعطي فيها سياق التلقي معنى للفيلم.

مجموعة الخطابات الترويجية والنقدية تعطي عدة شبكات تأويلية للفيلم. وغالبا ما يتموقع الجمهور العادي بناءا على هذه الخطابات. **(من جمهور السبت مساءا إلى الهاوي الواضح amateur éclairé وصولا إلى المهوس بالسينما أو عاشق السينما Le cinéphile).** المقال الشهير لستويرات هال 1977 (Codage/décodage) يعطي أدوات نظرية ومنهجية لتحليل التلقي الجماهيري أو ما يمكننا تسميته الاستخدام الاجتماعي للسينما بأبعادها النشطة والمتناقضة، بعيدا عن الصورة النمطية للجمهور السلبي والمتلاعب به. ما يهمنا هنا هو النوع الثاني من الخطابات حيث أعطت الانترنت مرئية visibilité لهذه الخطابات من خلال منتديات المحادثة، المدونات، نشير هنا إلى أعمال (Laurence Allard «2000) وحديثا (Laurent Jullier 2010) حول الاستخدامات الجديدة للانترنت، السينما وتحليل ممارسات إعادة التملك Réappropriation(Home movies/fan films) التي تمر بمراس تقني لا يمكننا أن نجد مثيله في سنوات الخمسينيات 1950.ولكن يتعلق الأمر أيضا باختلافات ثقافية : Henry Jenkins 1992 كان قد سلط الضوء على هذه الأشكال من التلقي الإبداعي (Réception créative) التي يبدو أنها تتوافق مع الممارسات الأمريكية أكثر من الفرنسية.

لمعلومات أكثر يرجى الاطلاع على المراجع التالية:

- سعيدة خيرة، بن عمار، **تمثلات واستخدامات الصحفيين لمو اقع الشبكات الاجتماعية: دراسة ميدانية تحليلية على عينة من الصحفيين الجزائريين**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة مستغانم: الجزائر، 2015-2016

- ريم، القريوي، اسهامات سوسيولوجيا الاستخدام: قراءة مفاهيمية نظرية، **مجلة الحكمة للدراسات الإعلامية والاتصالية**، 7(4)، 2020، ص-ص: 165-186.
- سامية، مهدي، مواقع الشبكات الاجتماعية: قراءة في سوسيولوجيا الاستخدام، **مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية**، 20، 2016، ص-ص: 162-174.
- علي، قسايسية، **جمهور وسائط الاتصال ومستخدموها: من المتفرجين إلى المبحرين الافتراضيين**، الجزائر، الورسم للنشر والتوزيع، 2011، ط1.
- بوكروح، مخلوف، **التلقي في الثقافة والإعلام**، الجزائر، مقامات للنشر والتوزيع، 2011، ط1.
- بن دنيا بعلي، فطيمة، أنموذج التلقي في بحوث جمهور وسائل الإعلام، **مجلة الحكمة للدراسات الإعلامية**، ع1، 2013.
- سعيدة خيرة، بن عمار، أمينة نزيهة، بداني، **السينما تحت الطلب"...كيف غيّرت الرقمنة آليات تلقي المنتجات السينمائية**، دراسة مُقدمة للمشاركة في الملتقى الوطني حول: المضامين الفكرية في السينما الرقمية، كلية الآداب والفنون، جامعة مستغانم، 2020.